أوراق المجلة الدولية للدراسات الأدبية والإنسانية ـ مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة ـ جامعة باتنة1 ـ الجزائر
ISSN 2773-2940 EISSN 2800-1435 المجلد 04 العدد 02 (سبتمبر، 2022) ص ص: 27- 46

حاضرة تلمسان في الكتابات المغاربية -العهد الزياني أنموذجا-

Tlemcen in Maghrebian Writings
- The Case of Zayani Era -

ط.د/ مريم محراب* _مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

جامعة باتنة 1، meriem.mehrab@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ القبول
2022/03/03م	2022/06/27م	2022/06/27م

ملخص

تعددت المراكز الفكرية والثقافية في دول المغرب العربي والإسلامي وعدت منارة لنشر العلم والمعرفة واستقطبت الكثير من المفكرين والرحالة يفدون إليها من كل جانب قصد التعلم فيها، ومن بين أهم هذه المراكز التي تركت ارثا ثقافيا وحضاريا غزيرا حاضرة تلمسان، ولقد شهدت هذه الأخيرة انتشارا واسعا في الفكر والعلوم المختلفة نتيجة تعاقب عدة حضارات وعبر ممالكها المتوالية: كالأدارسة والمرابطين والموحدين والزيانيين وغيرهم، وامتدت وأثرت في عدة مدن عربية وإسلامية.

عرفت مدينة تلمسان ازدهارا في حركتها الثقافية والمعرفية خصوصا في فترة الحكم الزياني، ومرد ذلك تميز بني زيان في الحكم، ومنه نسعى إلى الإجابة عن عدة أسئلة منها:

كيف كانت العلاقات الثقافية بين مدينة تلمسان ومدن المغرب العربي؟ وماهي أهم ردود الكتاب والمفكرين المغاربة وتفاعلهم بحاضرة تلمسان في فترة الحكم الزياني؟

الكلمات المفتاحية: تلمسان؛ المغرب الإسلامي؛ العهد الزياني.

Abstract

Throughout the Islamic history, there were many cultural centers in the Islamic Maghreb, each of which has emerged in a certain period. Tlemcen brightened and witnessed an unprecedented cultural prosperity during the Zayani era, as a result of the succession of several civilizations and through their successive kingdoms such as the Idrisis, the Almoravids, the Almohads, the Zayanites and others, and it extended and influenced several Arab and Islamic cities. During the Zayani rule Tlemcen flourished both culturally and cognitively due to Bani Zayan's uniqueness in governance. Hence, our study aims to answer the following questions:

- How was the cultural relation between Tlemcen and the rest of the Islamic Maghreb?
- What are the most important impressions that we can discover from the writings of maghrebian scholars about Tlemcen in the Zayani era?

Keywords : Tlemcen; Islamic Maghreb; Zayani era.

* المؤلف المرسل

1.مقدمة

شهد العالم العربي والإسلامي سواء المشرقي أو المغربي طوال عقود من الزمن بروز عدة مدن وبلدان وزوال أخرى، ويعود هذا البروز والظهور إلى الأدوار المهمة التي تلعبها تلك البلدان والمدن في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكذا قدرتها الفائقة في النظم والتسيير وتمكنها من الثبات لعدة قرون حتى قادتها إلى التطور والازدهار، ومن بين هذه المدن التي استمرت قوتها ومكانتها في مختلف المجالات رغم كثرة الفتن التي مرت بها؛ مدينة تلمسان بالجزائر عاصمة المغرب الأوسط قديما ولؤلؤة المغرب العربي والإسلامي داخليا وخارجيا إلا أنها عدت مركزا إشعاعيا وحضاريا في فترة حكم بني زيان التي امتد حكمها أكثر من ثلاثة قرون من سنة (633هـ-962هـ) الموافق ل(1235م- 1554م)، ولعل أهمية بحثنا الذي اخترناه أن يكون موضوعا يخدم دراستنا جاء معنونا ب: (حاضرة تلمسان في الكتابات المغاربية-العهد الزياني أنموذجا-)، تكمن في إبراز إرث هذه المدينة الغنية بتراثها وتاريخها ونتاجها العلمي والمعرفي، ومن هنا نصل إلى طرح عدة اشكالات لزم البحث فيها: كيف كانت العلاقات الثقافية بين مدينة تلمسان ومدن المغرب العربي؟

ما هي أهم الردود والأقوال للكتاب المغاربة عن حاضرة تلمسان في فترة الحكم الزياني؟

ما سر اطلاع المفكرين من المغرب العربي وتفاعلهم بشؤون حاضرة تلمسان؟

ولكي نجيب عن هذه التساؤلات اقتضت طبيعة الموضوع أن نتبع المنهج التاريخي لأنه يسمح بمعرفة المحطات التي مرت بها مدينة تلمسان، وباتباع أداة الوصف التي تسمح باستقراء النصوص الأدبية التي قيلت عن مدينة تلمسان

والكشف عن مدى تفاعلها بالمدينة، وقد جاءت دراستنا مقسمة إلى ثلاث محاور هي:

المحور الأول: تناولنا فيه معلومات جغرافية وتاريخية عن مدينة تلمسان ودواعي التسمية.

المحور الثاني: وتناولنا فيه وصفا للحركة الثقافية والفكرية لمدينة تلمسان الزيانية، وأهم العلاقات والصلات الثقافية بينها وبين مدن وحواضر المغرب الإسلامي.

المحور الثالث: وتناولنا فيه بيان التفاعل الثقافي بين حاضرة تلمسان الزيانية والمغرب الإسلامي، وذلك من خلال بعض كتابات الرحالة والشعراء والكتاب المغاربة عن حاضرة تلمسان.

وعن الدراسات السابقة التي تحدثت عن تلمسان نذكر منها: مقال علمي للباحثة فضيلة بوعياد المعنون ب: الحركة الثقافية خلال العهد الزياني تلمسان في القرنين السادس والسابع للهجرة؛ المنشور سنة 2018 والتي تحدثت فيه عن أهم مراحل التعليم في مدينة تلمسان وكيف اعتنى أمراء الدولة الزيانية بالعلماء، كما أن هناك دراسة للطالب بسام كامل عبد الرازق شقدان معنونة ب: "تلمسان في العهد الزياني" سنة المناقشة 2002 والذي حاول من خلالها إعطاء صورة عن مدينة تلمسان والتعريف بها من عدة جوانب سواء تاريخية كانت أو اجتماعية واقتصادية وعلمية. وقد جاء اختيارنا لمدينة تلمسان بغية الكشف عن جمالياتها والتعريف بما تملكه من حضارة راسخة للقراء قصد النهوض بتراث الجزائر وكيف كانت علاقات الدولة الجزائرية وتفاعلها مع البلدان المغاربية فيما سبق، وختمت دراستنا بحوصلة لأهم النتائج وقائمة للمصادر والمراجع.

2. نبذة تاريخية وجغرافية عن مدينة تلمسان:

من المعروف أن كلا من الموقع الجغرافي و تاريخ أي مدينة و ماضيها له تأثير كبير على ازدهارها و تطورها، وهذا ما نراه متجسدا في مدينة تلمسان رغم أنها سقطت في فخ الحضارة الحديثة، إلى أنها ما زالت محافظة على معالمها التاريخية؛ فنحن نجدها منتشرة في كل مكان وفي كل اتجاه تأخذنا إلى العصور السابقة للمدينة آنذاك.

وبالحديث عن موقعها الجغرافي نجد أنها تحمل موقعا استراتيجيا هاما، حيث تقع في الشمال الغربي للجزائر يحدها شمالا البحر الأبيض المتوسط وجنوبا ولاية النعامة وشرقا ولاية سيدي بلعباس وعين تيموشنت، أما غربا فتحدها دولة المغرب الأقصى، وقد ساعدها موقعها هذا بجعلها تمثل البوابة الرابطة بين الشرق والغرب من جهة، وبين الشمال والجنوب من جهة أخرى، وممرا عابرا للتجار من الدول الأوروبية والأندلسيين وبلاد المشرق العربي وبالنظر إلى شساعة مساحتها وامتدادها إلى الجنوب؛ نجد تنوعا في مناخها وتضاريسها الطبيعية من سهول وسلاسل جبلية وبتنوع المناخ والتضاريس تتنوع النشاطات البشرية من زراعة ورعي وتجارة. كما "وفر لها موقعها سهولة الدفاع وقوة الصمود أمام الغزاة، فضلا على ما تحتويه من مسطحات صخرية، وعلى ما تشتمل عليه من سهول فسيحة خصبة، وبساتين خضراء تتوفر على فواكه وخضر ومحاصيل زراعية متنوعة" (فيلالي، 2002، صفحة 88).

علاوة على ذلك فإن المدينة تشتهر أيضا بمغاراتها وكهوفها نذكر من بينها: مغارة بني عاد التي تعد الأولى والأجمل في شمال إفريقيا، إضافة إلى شلال لوريط الذي يعتبر أعلى شلال في الجزائر.

إن المنقب في كتب التاريخ والمخطوطات والآثار العمرانية يجد أن مدينة تلمسان ضاربة في الظهور منذ القدم ودليل ذلك في المواقع الأثرية والمنحوتات والبنايات العمرانية التي تزخر بها المدينة ولا تزال محافظة على أجزائها حتى يومنا هذا، التي اكتشفها العلماء والمؤرخون وتعود إلى قرون مضت عاش فيها الإنسان وتركت آثارها بارزة ومتجسدة على أرض المدينة، لهذا أطلق عليها بالمدينة القديمة وهذا ما يؤكده الكاتب عبد العزيز فيلالي بقوله:"اتخذت مدينة تلمسان أسماء متعددة منذ نشأتها، وعبر مراحل تاريخها، القديم والوسيط لأن تلمسان تعتبر من أقدم مدن المغرب الأوسط" (فيلالي، 2002، صفحة 88).

وقد مرت مدينة تلمسان بعدة حضارات ودول فتعددت تسمية المنطقة لتعدد وتنوع القبائل التي تقطن فيها، حيث إنّ المدينة كانت نقطة وصل بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى وقد قام بغزوها الرومان وأقاموا بها مركزا حربيا، وقد عرفت تلمسان في هذه الفترة باسم "بوماريا " وهي كلمة لاتينية بمعنى البساتين أو المراعي (بوزياني، 2011، صفحة 47)، والواضح أن الرومان عمدوا إلى اطلاق هذا الاسم عليها ولم تغفل عليهم طبيعة المدينة الساحرة والمناظر الخلابة والمناخ المعتدل، وكثرة المياه وتنوع تضاريسها وحصانة موقعها وربما هذا هو السبب الذي جعل الرومان يتخذونها قاعدة لمعسكرهم أيضا.

بعد الفتح الإسلامي أضحت بوماريا ضمن أملاك القبيلة الأمازيغية الكبرى التي عرفت لدى المسلمين بزناتة خاصة بين فرعها المسمى ببني يفرن عندها اختفى اسم بوماريا واحتل مكانه اسم أغادير أو أقادير تدعى أيضا مدينة الجدار (شاوش، 2011، صفحة 43)، نظرا لعلو وضخامة أسوار المدينة، كما يقال أن كلمة أغادير ذات أصل أمازيغي وتعني القلعة وفي قول آخر أن أصلها فينيقي اندرج في اللغة الأمازيغية ومعناه الجرف أو الهضبة ذات الانحدار الخفيف ومن أصل التسمية

يفهم أنه الاسم القديم للمدينة قبل غزو الرومان وقاموا باستعادته بعد زوال المعسكر الروماني (بوزياني، 2011، صفحة 58).

إلى أن التسمية التي ما تزال مستعملة إلى يومنا هذا هي تلمسان وقد تعددت الآراء في نشأة هذه التسمية فمنهم من يقول: "إنها تتألف من كلمتين بربريتين هما: (تلم) ومعناها تجمع و(سان) ومعناها اثنان، ومعناهما معا (تجمع اثنين) الصحراء والتل. بمعنى أنها تجمع بين طبيعة التل والصحراء لوقوعها في مكان ملائم لذلك" (بوعزيز، د. ت، صفحة 15)، أو بين البحر والصحراء و ذكر أيضا "أن بعضهم يسميها تلشان" (بوزياني، 2011، صفحة 60)، وهي أيضا مركبة من جزئين "تل بمعنى لها و شان بمعنى شأن" (بوزياني، 2011، صفحة 59)، وهناك من كتب المؤرخين من أطلق عليها بتلنسان بحرف النون وهناك من أطلق عليها بتلمسن قال ألفرد بل: ((تلمسان كلمة عربية مأخوذة من الكلمة البربرية "تلمس" (والجمع تلمسان وتلمسين)، ومعناها نبع أو بئر ومن ثم كان معنى تلمسان مدينة الينابيع)) (بوزياني، 2011، صفحة 61) ، ومنذ بزوغ نور الإسلام في شمال افريقيا توالى تتابع الدول المسلمة التي استوطنت وسيطرت على مدينة تلمسان كالآدارسة والمرابطين والموحدين ثم الدولة الزيانية، وفي كل مرة تزداد تطورا مع كل دولة وقد تدمر وتهدم بعض بنياتها، لكن في فترة الحكم الزياني كانت في أوج ازدهارها وتطورها بسبب اهتمام السلاطين بالعلم و العلماء بدءا بالسلطان يغمراسن وخلفه في ذلك بقية السلاطين، لدرجة أن وصفت تلمسان بعدة أسماء نظرا للمكانة المرموقة التي وصلت إليها في المغرب الإسلامي مثل:"لؤلؤة المغرب، وجوهرة المغرب، وعروس المغرب الأوسط، وحاضرة المغرب الأوسط، وقاعدة المغرب الأوسط وأم بلاد زناتة، ومدينة الفن والتاريخ، وغرناطة إفريقيا." (بوزياني، 2011، صفحة 62)

3. الحركة الثقافية والمعرفية لمدينة تلمسان الزيانية:

اهتم سكان المغرب العربي والإسلامي بالعلم والبحث عنه وكانت مدينة تلمسان إحدى الوجهات التي تستقطب خيرة العلماء والباحثين وطلاب المعرفة من مشارق العالم الإسلامي ومغاربه، بل وحتى الأندلسيين، فكونت صلات وعلاقات ثقافية بينها وبين مدن المغرب العربي والإسلامي في فترة العهد الزياني، رغم ما عاناه هذا العصر من فتن داخلية وخارجية مع إمارة بني مرين في المغرب الأقصى، وإمارة بني حفص في تونس، إلى أن هذه الفتن لم تُؤثّر على الحياة العلمية والمعرفية بل بالعكس ازدهرت وبلغت أوجها في هذه الفترة، فصارت مركزا فكريا وحضاريا ومنارة للعلم بعد مدينة بجاية وتيهرت اللتين كانتا منارات للعلم أيضا، فجاءت تلمسان خلفهما تنافس مختلف حواضر المدن المغربية المشهورة، إلى أن بلغت مبتغاها وعدت حاضرة للمغرب الأوسط في فترة العصر الزياني، وبهذا انتقلت مدينة تلمسان وشعبها من طور البداوة والريف إلى طور الحضارة والرقي التي ساعدت عوامل معينة في انتقالها هذا منها: اهتمام أمراء وسلاطين الدولة الزيانية ببناء المدارس العلمية قصد تثقيف المجتمع الزياني وتكوين الأجيال الناشئة على العلم والنهوض بالدولة، لأن انتشار العلم والمعرفة بين عامة الشعب وكباره لهو دلالة على مكانة ورقي أي دولة. ويعتبر يغمراسن هو أول سلطان للدولة الزيانية التي عاصمتها تلمسان وقد اهتم بالعلم والعلماء، حيث "يعد يغمراسن نابغة وقته، فقد كان يجاور أصحاب العلم والعلماء ويقربهم إلى منزلته، ويغمرهم بالعطايا، فقد كان يجالس العلماء ويبحث عنهم أينما كانوا ويستقدمهم إلى بلده ويقابلهم بما هم أهله، وقد التفت حوله الأدباء والشعراء والكتاب من الأندلس والمغرب فبسط عليهم رعايته، وولى الكثير منهم مناصب الثقة والمسؤولية في بلاطه، وعلى نهجه سار أحفاده من بعده" (بوعياد و زمري، 2018، صفحة 42).

ومما يلاحظ أن الطلبة كانوا يتوجهون في طلب العلم بواسطة الرحلات، فاحتك علماء المغرب الأوسط بعلماء المغرب والمشرق العربيين فتأثرت بذلك الحياة الفكرية والثقافية بدولة بني عبد الواد، فصارت تلمسان مركزا علميا يضاهي مراكز الثقافة في كل من تونس والمغرب، "ولقد أسس الأمير أبو حمو موسى الأول، أول مدرسة علمية بتلمسان في مطلع القرن الثامن الهجري خصصها للعالمين الفاضلين ابني الإمام: أبي زيد عبد الرحمان، وأبي موسى عيسى، ليدرسا بها" (بوعزيز، د. ت، الصفحات 5-6)، "وجاء بعده ابنه الأمير تاشفين الأول أسس المدرسة التاشفينية بجانب الجامع الأعظم حيث مركز البلدية الحالي، كما أمر الأمير أبو حمو موسى الثاني ببناء المدرسة اليعقوبية عام 763 هـ/ 1362 م بجانب ضريح قبور: أبيه أبي يعقوب، وعميه: أبي سعيد عثمان وأبي ثابت، وخصصها للعلم الفقيه أبي عبد الله محمد الشريف الحسني التلمساني، وولده أبي محمد من بعده، ليدرسا بها وينشرا علومهما ومعارفهما الواسعة" (بوعزيز، د. ت، صفحة 6)، ومن العوامل – أيضا – التي ساهمت في تطور مدينة تلمسان كثرة العلماء والشيوخ وتعدد إنتاجهم الفكري وتنوع علومهم نذكر منهم:

"أبو اسحاق بن يخلف بن عبد السلام التنسي؛ وهو من أفضل العلماء والصالحين من الأولياء والزهاد؛ له منزلة جليلة، وقدر عظيم؛ في حياته ومماته، احتل مكانة سامية لدى الملوك والأمراء، له تآليف عديدة، رحل إلى الحج ثم عاد إلى تلمسان؛ أين توفي في حدود سنة 680هـ/1281م ودفن بالعباد." (بوزياني، 2011، صفحة 169)

أبو عبد الله محمد بن عيسى، فقيه وصوفي من أهل الصلاح؛ نشأ في أقادير بتلمسان؛ وعاصر يغمراسن بن زيان في القرن السابع الهجري. (بوزياني، 2011، صفحة 170)

أبو الحسن علي بن عبد الكريم التلمساني؛ هو من أهل تلمسان مقرئ، أشاد به كل من عرفه. ونوهوا بقدراته في القراءات. (بوزياني، 2011، صفحة 170)

إبراهيم الطيار الغوث؛ (أبو إسحاق). يعد من كبار الأولياء، ومن العاملين بجد على تعليم كتاب اله عز وجل ومات قبل دخول سنة 700هـ؛ فدفن بالعباد. (بوزياني، 2011، صفحة 184)

العلامة الشيخ أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الأبلي. يطلق عليه اسم المعلم الأصغر. وهو عالم منطقي ورياضي؛ ولد بتلمسان في سنة 681هـ/1280م. بينما يعود في أصوله الأولى إلى آبلة بالأندلس. (بوزياني، 2011، صفحة 202)

ومن هنا نلاحظ أن علماء حاضرة تلمسان في العهد الزياني تنوعت علومهم بين دينية وسياسية وتاريخية وأدبية وعلمية، ويرجع هذا التعدد والتنوع؛ إلى كثرة المراكز العلمية من كتاتيب قرآنية وقاعات تعليمية في المساجد والزوايا والمدارس التي أمر ببنائها أمراء الدولة الزيانية فساهمت في نشاط الحركة الفكرية والثقافية وظهور تيارات فقهية وصوفية آنذاك.

وقد وجد نوعان من التعليم بتلمسان:

النوع الأول: حكومي، ويطلق عليه أحيانا التعليم الرسمي، وهو تعليم تقوم به الدولة اتجاه الأفراد، وتأخذ الدولة على عاتقها بناء المدارس وتعيين المدرسين وتحديد الجرايات للمدرسين والطلاب. (شقدان، 2002، صفحة 222)

النوع الثاني: يطلق عليه التعليم الحر ويتم دون تدخل الدولة أو تكون سيطرتها عليه قليلة، ويتم داخل الزوايا وقرب قبور الأولياء وبعض المساجد (شقدان، 2002، صفحة 222). وكل هذا الاهتمام بالعلم والعلماء ساهم في تكوين علاقات وصلات ثقافية بين مراكز التعليم بمدينة تلمسان وبين المراكز التعليمية بمدن

المغرب الإسلامي، بهدف الاستزادة أكثر والتعرف على أقطاب وبلدان العالم الإسلامي من خلال الرحلة التي يقوم بها طلاب العلم والجغرافيين.

1.3 العلاقات الثقافية بين حاضرة تلمسان ومدن المغرب العربي الإسلامي:

قسم شمال افريقيا إلى عدة بلدان جغرافيا في إحدى فتراته الإسلامية، بعد سقوط دولة الموحدين وظهرت عدة تقسيمات هي: المغرب الأدنى والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى، فما هي حدود هذه البلدان؟

1.1.3 تلمسان وعلاقاتها بالمغرب الأدنى: "يسمى المغرب الأدنى بافريقية وكان يشمل جمهورية تونس الحالية وبعض الأجزاء الشرقية من الجزائر وكانت عاصمة القيروان أيام حكم الأغالبة ثم المهدية أيام الفاطميين ثم مدينة تونس منذ عهد الحفصيين إلى اليوم"، (رزقي، 2013، صفحة 212) "وممن قصد تلمسان من أهل المغرب الأدنى (عبد الله بن قاسم المحمودي التونسي في الربع الأخير من القرن8هـ/14م) اشتهر بالفقه والحديث، رحل إلى تلمسان للاستزادة من العلم عن مشاهير شيوخها و أجاز العديد من طلاب العلم بها، ثم عاد إلى تونس فتولى قضاء الأنكحة بها، ويجب الإشارة كذلك إلى أبي القاسم بن أحمد بن محمد القيرواني الشهير بالبرزلي (740-842هـ/1339-1438م) يعتبر من مشاهير فقهاء تونس ومفتيها، أخذ العديد من شيوخ تلمسان، هذا دون أن ننسى (عبد السلام التونسي عاش في القرن9هـ) اشتهر بالفقه والتصوف، استقر للتدريس بتلمسان حتى توفي بها." (بلعربي، 2010)

وهنا نلاحظ اهتمام سكان المغرب الأدنى بزيارة مدينة تلمسان والأخذ عن علمائها أجود العلوم والآداب، ومنهم من أراد الاستقرار بها باعتبار أن له الحق بتعليم طلبة وتلاميذ تلمسان بعد أن تلقى العلم عن أفضل علمائها، ولا يعني هذا أن سكان المغرب الأدنى وحدهم من ارتحلوا وتأثروا بعلوم وحاضرة تلمسان، بل

حتى طلاب مدينة تلمسان تأثروا بآداب وعلوم المغرب الأدنى في تونس، فنتجت صلات وروابط ثقافية وتأثرت وأثرت كل من الحاضرتين وممن قصد تونس أو المغرب الأدنى من طلبة وأهل تلمسان في طلب العلم نذكر منهم:

"الفقيه أبا اسحاق ابراهيم التنسي (ت680هـ/1281م): الذي شرق وغرب فدرس بمسقط رأسه تنس وملیانة والشلف، وقرأ بمدينة تلمسان وبجابة وتونس والقاهرة والشام." (فيلالي، 2002، صفحة 329) وغيرهم كثير.

2.1.3 تلمسان وعلاقاتها بالمغرب الأقصى: "يعتبر امتداد للمغرب الأوسط لميوعة الفواصل بينهما ويعتبر نهر ملوية هو الحد الفاصل بينهما شرقا ويمتد إلى المحيط الأطلسي غربا،" (رزقي، 2013، صفحة 212) "ومن أبناء مدينة فاس في المغرب الأقصى الذين تلقوا العلم في تلمسان و تثقفوا فيها عيسى بن أحمد الماساوي المتوفّى عام 896هـ، أخذ الكثير عن شيوخ تلمسان في سائر العلوم، وممن قصد تلمسان كذلك من فاس عبد العزيز بن عبد الواحد اللمطي الذي كان آية في التوسع في العلوم و التفنن فيها، الكثير من علماء تلمسان من بينهم الإمام أبي عثمان سعيد المنوي." (بلعربي، 2010)

وهنا نلاحظ اهتمام سكان المغرب الأقصى بزيارة تلمسان كذلك كغيرهم من المغاربة وتأثرهم بها، وهناك من طلاب وأهل مدينة تلمسان من تأثروا بحواضر المغرب الأقصى، فنشأت علاقة تأثر وتأثير بينهما ومن بين العلماء الذين ارتحلوا إلى المغرب الأقصى وأخذوا من علومها نذكر منهم:

"أبا عبد الله محمد النجار (ت750هـ/1349م) أخذ العلم عن مشيخة تلمسان ثم ارتحل إلى المغرب الأقصى، حيث حط رحاله للدراسة بمدن مختلفة بسبته وفاس ومراكش، حتى صار إمام علوم النجامة وأحكامها، ورجع إلى تلمسان بعلم غزير."

(فيلالي، 2002، صفحة 330) أما "محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني (ت818هـ/1415م) أخذ العلم بمدينة تلمسان ومختلف القراءات على شيوخها، ثم انتقل إلى مدينة فاس لدراسة الفقه والتعمق فيه، فأجازه شيخ الجماعة بها وهو عيسى بن علال وسمح له بالتدريس في مدرسة العطارين، ثم انتقل إلى مدينة مكناسة الزيتون، فظفر ببغيته فيها وهو أول من أشاع مختصر خليل بالمغرب سنة 805هـ/1402م" (فيلالي، 2002، صفحة 334)، كذلك هنالك عالم تلمساني آخر رحل إلى مراكز التعليم بالمغرب الأقصى وأخذ من علمهم وهو: "أبا يحي عبد الرحمان بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني (ت826هـ/1422م)، درس أبو يحي عبد الرحمان بتلمسان، ثم توجه إلى فاس للاستزادة في التحصيل والاحتكاك بعلماء حاضرة بني مرين، فقرأ الموطأ على والده، وردس أصلا ابن الحاجب عن سعيد العقباني وكذلك التفسير والنحو والمنطق، وأخذ العربية عن الأستاذ ابن حياتي وغيره من طلاب العلم الذين ظلوا يشدون الرحال، ويتنقلون بين الحواضر الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس والمشرق." (فيلالي، 2002، صفحة 334)

ونخلص من هذا كله أن حاضرة تلمسان قوَت أواصر العلاقات بينها وبين حواضر كل من المغرب الأدنى والمغرب الأقصى في طلب العلم والمعرفة، فتكونت صلات ثقافية لا ينكرها أحد.

4. التفاعل الثقافي بين حاضرة تلمسان الزيانية ومدن المغرب العربي الإسلامي:

شهدت مدينة تلمسان إحدى أكثر فترات حياتها الثقافية خصوبة إبان العهد الزياني من (633- 962هـ/1235- 1554م)، كما شهدت تبادلا وتفاعلا ثقافيا بينها وبين مدن المغرب والأندلس الإسلاميين، ولعل أسباب هذا التفاعل يعود إلى:

- القرب الجغرافي بين مدينة تلمسان والمدن المغربية المجاورة لها.

- وحدة العقيدة الإسلامية واتّباع المذهب المالكي لسكان مدينة تلمسان والمدن المغربية الإسلامية.
- وحدة التراث والثقافة بين مدينة تلمسان ومدن المغرب الإسلامي.
- كثرة العلماء والشيوخ ونزوح علماء الأندلس إلى دولة بني زيان في القرن السابع الهجري نظرا لسقوط عدة مدن أندلسية بسبب الصراع الإسباني والحملات الصليبية وسبب في نقلة الكثير من العلوم والفنون الأندلسية.
- كثرة المراكز التعليمية وانتشار المكتبات وخزائن الكتب العلمية والأدبية.
- عدم المساس بطلاب العلم والمعرفة وتقديرهم وتشجيعهم على التنافس فيما بينهم.
- تطور الاقتصاد وتعدد الصناعات والحرف ذات الطابع الأندلسي والمغربي وتميزها عن المشرق العربي.

1.4 تلمسان الزيانية في كتابات الرحالة المغاربة:

عرف العرب منذ عصورهم الأولى الرحلة لأنها نشاط حيوي إنساني يقوم به قصد البحث عن الكلأ أو الماء أو سعيا للرزق، ولما جاء الإسلام تبدت دواعي أخرى للرحلة والسفر منها الدعوة لعبادة الله وتبليغ رسالته ونشرها بين مختلف البلدان والأمم، وكما أن الرحلة أصبحت ركنا من أركان الإسلام عن طريق الحج ولمن استطاع إليه سبيلا والجهاد في سبيل الله أو الهجرة أمنا من غدر العدو، ولما انتشر الإسلام عن طريق الفتوحات في المشرق والمغرب وركدت الحياة السياسية بعض الشيء وعم الاستقرار فأصبح الباعث الأول للرحلة هو طلب العلم والمعرفة، ولقد شهدت بلدان شمال إفريقيا بعد الفتوحات الإسلامية أزهى عصورها الثقافية في تاريخها الإسلامي، حيث تنافست حواضر ومدن المغرب العربي فيما بينها وسعت في استقطاب خيرة العلماء والأساتذة قصد التزود والثراء بعلمهم النافع، ومنذ ذلك

الوقت والرحلة هي في مطلب دائم وضروري لكل طلاب العلم وتلامذته، فانتشرت الرحلة وظهر فن الرحلة التأليفي الذي يجمع بين المتعة القصصية الأدبية وبين التعريف بحواضر المدن والبلدان للقراء الذين يصعب عليهم التنقل والسفر بعيدا، وكانت تلمسان من هذه الحواضر والمدن التي تستهوي الرحالة لزيارتها ووصفوها بأجمل العبارات في رحلاتهم من وصف جغرافي وتاريخي واجتماعي وثقافي ومن أمثال هؤلاء الرحالة المغاربة نذكر منهم:

محمد العبدري الحاحي (ت700ه) من المغرب يصف حاضرة تلمسان في رحلته المغربية قائلا: "تلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية جميلة المنظر مقسومة باثنين بينهما سور ولها جامع عجيب مليح متسع، وبها أسواق قائمة، وأهلها ذوو ليانة، والدائر بالبلد كله مغروس بالكرم، وأنواع الثمار، وسوره من أوثق الأسوار وأصحها وبها حمامات نظيفة أشهرها حمام العالية قل من يرى له نظير، وبالجملة هي ذات منظر ومخبر، وأنظار متسعة، ومبانيها مرتفعة" (بوعزيز، د. ت، صفحة 26)، ومن وصفه هذا في رحلته نلاحظ أنه اهتم بتصوير جمال عمران مدينة تلمسان وما تزخر به من ثمار ومناظر وحمامات، كما نجد الرحالة محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة (703- 779ه) أمير الرحالين المسلمين، قد مر بمدينة تلمسان وزارها مرتين حيث يعرج إلى ذكرها في رحلته المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، حيث يقول: "كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمدا حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، منفرد عن رفيق آنس بصحبته... وسني يومئذ اثنتان وعشرون سنة وكان ارتحالي في أيام أمير المؤمنين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين... فوصلت مدينة تلمسان وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمان

بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان، ووافقت بها رسولي ملك إفريقية السلطان أبي يحيى رحمه الله، وهما قاضي الأنكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر علي بن إبراهيم النفزاوي، والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي... وفي يوم وصولي إلى تلمسان، خرج عنها الرسولان المذكوران، فأشار علي بعض الإخوان بمرافقتهما، فاستخرت الله عز وجل في ذلك وأقمت بتلمسان ثلاث أيام في قضاء مآربي" (ابن بطوطة، 1987، الصفحات 33-34)، ومن خلال قوله هذا يتبين أن الرحالة ابن بطوطة لم يعمد إلى وصف طبيعة مدينة تلمسان ولا أهلها، وإنما فقط بين أنه أقام فيها لعدة أيام قبل أن يكمل رحلته وأنه زارها في فترة الحكم الزياني، ويمكن اعتبار قوله هنا مجرد سرد تاريخي لحركاته مع بداية رحلته من مدينته طنجة، وهناك أيضا رحالة معروف ومشهور في كتب المغرب العربي والإسلامي الرحالة والشيخ أبو البقاء خالد البلوي المالكي (ت765هـ) الذي زار مدينة تلمسان وذكر محاسنها في رحلته تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، حيث يقول: "إلى أن وافينا مدينة تلمسان، فحللنا بها ضحوة يوم الجمعة، الثاني عشر من الشهر المذكور، فرأيت مدينة قل مثلها، وجل عرارها وبانها واثلها، بطاح وأدواح، وربى ملاح، وضياء وانشراح، وبسيط له اتساع وانفساح، ومياه لها على در الحصا انسحاب وانسياح، وروضات يعترى ويعترض إليها اهتزاز وارتياح، وجنات ريقها ندى وثغورها أقاح، فسيحة الأرجاء، صحيحة الهواء، ممتدة الغاية في الحسن والانتهاء، جوها صقيل، مجتلاها جميل ونشرها أريج النفس عليل." (البلوي، د. ت، الصفحات 148-149)

كما يقول أيضا في وصف تلمسان: "وهي روض يثمر خيلا وأعنة، وبحر يزخر قنا وأسنة، وذوائب الاعلام تخفق، وألسنة عذباتها تكاد بالنصر تنطق، والأحوال قد استقامت، والأخبية على القاعدين فيها قد قامت، وهي مبيضة كسقيط الثلج،

ومصطفة كبيوت الشطرنج، وقد أشرق الجو باشراق الخمائل والنبات، وأشرف على مدينة أحدقت بها الأزهار والأنهار من جميع الجهات، فأقمنا هناك درر الأنباء، ونحتلب در النعماء، وأنا أمرح في جهاتها مرح العين في منتزهاتها." (البلوي، د. ت، صفحة 150)

ومن هنا نلاحظ أن الرحالة خالد البلوي قام بوصف مدينة تلمسان من خلال الجانب الجغرافي لها من سرد لجمال الأزهار والأنهار والوديان التي تزخر بها والطبيعة التي تنعم بها والمنشآت العمرانية التي تعمرها، مصورا كل ما شاهده حول مدينة تلمسان.

2.4 تلمسان الزيانية في كتابات الشعراء المغاربة:

اهتم الشعراء العرب بوصف أوطانهم وبلدانهم وأراضيهم نظرا لإحساسهم الدائم بالانتماء والعلاقة التكاملية بينهما، ولهذا نجد في كثير من شعر العرب ذكرهم للمدن والأوطان والافتخار بها وبمجدها، ولقد عبر وتغنى الشعراء المغاربة بعد الفتوحات الإسلامية عن المدن المغاربية وجمالها، ومن بين الشعراء الذين صوروا في شعرهم مدينة تلمسان، الشاعر التلمساني ابن خميس الذي أظهرت تجربته الشعرية في وصف تلمسان والتشوق لها كل عبارات الصدق والحنان حيث يقول: (المقري التلمساني، د. ت، الصفحات 131-133)

تلمسان جادتك السحاب وأرست بواديك الرياح واللواقح
وسح على ساحات باب جيادها ماء يصافي تربها ويصافح
يطير فؤادي كلما لاح لامع وينهل دمعي كلما ناح صادح

وفي مقطع شعري آخر لابن خميس التلمساني يصف أهم الأماكن العريقة بمدينة تلمسان حيث يقول: (صاري، 2007، صفحة 88)

قراح غدا ينصب من فوق بمثل حلاه تستحث القرائح

أرق من الشوق الذي أنا كاتم وأصفى من الدمع الذي أناسافح

ومن خلال هذه الأبيات يتبين أن الشاعر يعبر عن مدى لوعته وشوقه إلى مدينة تلمسان واصفا أهم معالمها.

ومن الشعراء المغاربة من أبناء تلمسان من أحسن في وصفها الدقيق وبيان جمال طبيعتها الخلابة، الشاعر الثغري التلمساني حيث يقول: (الدراجي، 2011، الصفحات 279-280)

وتمش في جناتها ورياضها وأجنح إلى ذاك الجناح المخضل

تبدو لك الأفراح فيها أنجما زهرا ولكن لسن عنك بأفل

تسليك في دوحاتها وتلاعها نغم البلابل واطراد الجدول

بنواسم وبواسم من زهرها تهديك أنفاسا كعرف المندل

كما يصف جمالها الرحالة والشيخ البلوي في هذه الأبيات حيث يقول: (البلوي، د. ت، صفحة 149)

وأرض من الحصباء بيضاء قد جداول ماء فوقها تتفجر

كما سبحت تبغي النجاة أراقم على روضة فيها الأقاح منور

ومنه نرى أن الشعراء المغاربة تأثروا بجمال مدينة تلمسان لما شكلته طبيعتها الخلابة من سلب عقول الشعراء فجادت قارئحهم الشعرية بالتعبير عنها بأجمل العبارات، التي تبين مدى مكانة ودور مدينة تلمسان العريقة في عصر بني زيان.

3.4 تلمسان الزيانية في مصنفات المغاربة:

تعددت المصنفات والموسوعات وكتب الأعلام والمدن العربية التي ذكرت تاريخ مدينة تلمسان وملوكها وموقعها الجغرافي ومناخها الخلاب ومن بين هذه الكتب العربية القديمة أمثال: كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني الواد للمؤلف يحيى بن خلدون، حيث وصفها في كتابه بعد اقامته بها في القرن الثامن الهجري بقوله: "مدينة عريقة في التمدن، لدنة الهواء، عذبة الماء، كريمة المنبت، اقتعدت بسفح جبل ورنيد عروسا فوق منحة، والشماريخ مشرفة عليها، إشراف التاج على الجبين، تطل على فحص للفلح،" (ابن خلدون ي.، 1980، صفحة 75) وهناك كتاب لم يعرف مؤلفه كتب في العهد الزياني عنوانه زهر البستان في دولة بني زيان وقد حققه المؤلف بوزياني الدراجي، وكتاب آخر تحدث عن مدينة تلمسان في هذا العصر لمحمد عبد الله التنسي التلمساني صاحب كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، وهذه من بين أهم الكتب في هذا العصر وهناك كتب أخرى لا تسمح الدراسة بذكرها كلّها ولربما نعقب عليهم في دراسات لاحقة.

5. خاتمة:

وفي الأخير نخلص من خلال دراستنا هذه والمعنونة ب: حاضرة تلمسان في الكتابات المغاربية -العهد الزياني أنموذجا- إلى أهمّ النتائج نذكر منها:

- ✓ مرت مدينة تلمسان بعدة حضارات ودول عربية وإسلامية، ساهمت في النهوض بها وسعة ازدهارها ورقيها.
- ✓ تعددت أسماء وصفات مدينة تلمسان منذ القدم؛ كأقادير وبوماريا وتلمسن، وعروس المغرب الأوسط ولؤلؤة للمغرب العربي الإسلامي، وغرناطة لإفريقيا.

- ✓ عرفت مدينة تلمسان في العهد الزياني لمدة ثلاثة قرون من حكمها نقلة نوعية في مجال العلم والمعرفة، نظرا لاهتمام أمراء وسلاطين دولة بني زيان بالعلم والعلماء.
- ✓ ساهمت عدة عوامل في تنشيط الحركة الثقافية والمعرفية لمدينة تلمسان الزيانية من بينها: استقطاب العلماء والأساتذة من عدة أقطار من العالم الإسلامي، كثرة العلماء والشيوخ وتعدد وتنوع مجالاتهم العلمية، إنشاء المراكز والمدارس التعليمية والمكتبات الثقافية.
- ✓ ارتبطت مدينة تلمسان بعدة صلات وعلاقات ثقافية ومعرفية بينها وبين جاراتها من مدن المغرب، سواء الأدنى أو الأقصى باعتبارها منارة للعلم والعلماء ومركز إشعاعي وحضاري.
- ✓ حسن تسيير أمراء وسلاطين الدولة الزيانية جعل عاصمتها تلمسان في تأثر وتأثير بينها وبين مدن المغرب الإسلامي، لدرجة انفعال وتفاعل كبار العلماء والرحالة والجغرافيين بجمالها وتراثها وعمرانها أمثال: الكاتب يحيى بن خلدون، والرحالة محمد العبدري، والشاعر ابن خميس التلمساني وغيرهم كثير.

6. قائمة المراجع:

1. ابن بطوطة. (1987). *تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. ج1* (المجلد 1). (محمد عبد المنعم العريان، و مصطفى القصاص، المحررون) بيروت، 1987: دار إحياء العلوم.
2. بلعربي، خالد. (2010). *العلاقات الثقافية بين تلمسان ومراكز الفكر في المغرب الإسلامي*. تاريخ الاسترداد 13 08, 2020، من مغرس محرك بحث إخباري المغرب: https://www.maghress.com/alhoudoude/861

3. البلوي، خالد بن عيسى. (د. ت). *رحلة تاج المفرق في تحلية علماء المشرق. ج 1*. الرباط: صندوق إحياء التراث الإسلامي.

4. ابن خلدون، يحيى. (1980). *بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. ج1*. (عبد الحميد حاجيات، المحرر) الجزائر: المكتبة الوطنية الجزائر.

5. بوعزيز، يحيى. (د. ت). *تلمسان عاصمة المغرب الأوسط* .الجزائر: مركز عاصمة الثقافة العربية.

6. بوعياد فضيلة، و محمد زمري. (2018). الحركة الثقافية خلال العهد الزياني تلمسان في القرنين السادس والسابع للهجرة. *دراسات أدبية* (21).

7. الدراجي، بوزياني. (2011). *أدباء وشعراء من تلمسان. ج1*. ج4. الجزائر: دار الأمل للدراسات.

8. رزقي، نبيلة. (2013). التفاعل الثقافي ما بين المغرب الأوسط والأندلس (القرنين 7-8هـ/ 13-14م). *مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، 1* (1).

9. شاوش، محمد بن رمضان. (2011). *باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان. ج1*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

10. شقدان، بسام كامل عبد الرزاق. (2002). تلمسان في العصر الزياني (233- 962هـ). *رسالة ماجستير في التاريخ*. فلسطين: جامعة النجاح الوطنية.

11. صاري، زليخة شعبان. (2007). تلمسان في شعر ابن خميس. *مجلة الفضاء المغاربي، 1* (4)، 85-89.

12. فيلالي، عبد العزيز. (2002). *تلمسان في العهد الزياني. ج1*. الجزائر: دار موفم للنشر.

13. المقري التلمساني. (د. ت). *نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب* (المجلد 7). (احسان عباس، المحرر) بيروت: دار صادر.